فرنسا : من بيير ايمانويل

تمر الاشهر الثلاثة في باريس مرورا سريعا ، وعندما يحسب الباريسي حساب ما قرأ ، وما رأى ، وما فعل ، يدهشه ان يكون الحصاد بهذه الضآلة . لكنه رغم هذا ، نراه يعرف كل شيء ، وباستطاعته ان يتحدث في كل شيء : ذلك بأن الصحف الباريسية تأتي بين افضل صحف العالم . والرجل « المثقف » هو الرجل الذي يعرف جريدته معرفة جيدة ، ويعرف ما تسوقه اليه جريدته . وفي اي محفل وجدت ، لن تشعر بأنك غريب ، اذا كانت معك جريدتك اليومية واحدى المجلات الاسبوعية الدارجة ، فبفضلها يصبح في امكانك ان تبني هذه السمعة وتحطم تلك ، ويصبح في امكانك ان تحسم في الآراء وفي الناس . ولست بحاجة الى ان تكون قد طالعت الكتاب الذي يتكلم عنه جارك — وربما يكون هو قد قرأه — حتى تفرض على هذا الجار حكما لم يحسن هو نفسه اطلاقه ولا تكوينه .

لنتفاهم : الناس الذين اتحدث عنهم هم « مثقفون » ، ابناء الحوادث والاحداث الراهنة التي لا يمكنهم العيش بدونها . انهم يتمايشون بين بعضهم البعض في باريس ؛ لكلماتهم اصداء تتردد في ما بينهم ، فمعظم الباريسيين الاخرين لا يعلمون شيئا ، في الواقع ، مما يحدث في مدينتهم : الغرباء هم ، عادة ، اكثر اطلاعا ؛ ويلذني ان افكر ان بعضا من قرائي سيحكم عليّ ، من قراءة هذا المقال ، بأنني اقليمي ، قروي ، منعزل .

ذلك بانني اشعر سلفا ان حدود هذا المقال ضيقة جداً . على انه خلاصة لعدد كبير من النزهات ، من الكتب المقروءة ، من السهرات المفقودة او المكتسبة في المسرح . كنت اود لو تطفو ذكرى واحدة من تلك الذكريات لتفرض نفسها هنا . لكن لا تستوقفني اي ذكرى ، في الحقيقة ، اللهم ولا ذكرى ذات علاقة بثقافتنا . لكن ثمة صورة مضطربة ، هاربة : صورة المعرض الذي اقيم في متحف الفن الحديث في كانون الاول (ديسمبر) ، وضم رسوما لفراندما موزز . وغراند ما موز هي تلك الامريكية البالغة المائة من العمر ، التي رسمت ، وهي جالسة الى نافذتها ، صور مراهقتها في القرية التي لم تبرحها قط . رسومها ساذجة وماهرة في وقت واحد ، ترى فيها ما تراه في ايراق اشجار الخريف كما يعرف ان يراها ، في النادر ، بعض الفنانين . في الخارج ، على سطيحة المتحف ، عجوز يأتي كل يوم احد ومعه جهاز الحاكي واسطوانات لموسيقى راقصة ، ويأخذ في الرقص على انغامها ، وعلى هواه . وينظر اليه الكثيرون ، شبانا وشيوخا ، ولا ريب انهم يتأسفون على كونهم لا يستطيعون مجاراته .

وهناك معرض آخر اجتذب اليه الجمهور ، اقيم في المتحف نفسه : انه معرض لو كوربوزييه . ولو كوربوزييه رجل متعدد الصفات : فهو مهندس ، ومهندس مدن . ورسام ، ونحات ، ونجار ابنوس ، وغير ذلك ايضاً . ويمثل معرضه — وهو تعليمي — مدن المستقبل كما لو اننا نعيش فيها الآن . وقد ارفق الرسام بلوحاته شروحاً وتفسيرات . ولو كوربوزييه يريد سعادتنا

ولو بالرغم منا ، نحن الذين لا ندرك بعد مقاييس هذه السعادة . اما هو ، فانه يحدد هذه المقاييس وكأنه راء يرى وراء الغيب ما سيكونه القرن الحادي والعشرون – القرن الذي سيضطر فيه ٦ او ٧ مليارات نسمة الى العيش في بيوت متلاصقة . المشكلة التي يعالجها لو كوربوزييه هي توفير المكان لسكان المستقبل – هذا المكان الذي ينقصهم اليوم . والحل في نظره هو اعادة « الاخضر » الى قلب المدن . وهذا الحل ، الذي يجمعن مكان السكن ويشخصن المنظر ،هو حل بارع ، لا شك انه يجذب الشبان اليه . لكن رسوم لو كوربوزييه ليست ، مع الاسف ، كثيرة بحيث يمكن الحكم اذا كان مشروعه واقعيا او خياليا . ان لبعض اشكاله الجمال البسيط الذي لاشكال لودو ، وهو مهندس عبقري آخر من القرن الثامن عشر ، يكاد لا يبقى منه شيء الى اليوم .

بين المعجبين بلو كوربوزييه نجد اندريه مالرو ، المنشغل هو ايضاً انشغالا كبيرا بالهندسة ، ويبدو كذلك انه عهد الى لو كوربوزييه بمهمة تحقيق ابنية السفارة الفرنسية في برازيليا . لكن لو كوربوزييه لن يقبل بالمهمة الا اذا اعطي الحرية الكاملة في العمل : وانه ليسرنا ان يستطيع ، في مدينة هي نفسها اعجوبة من اعاجيب الاختراع الهندسي ، ان يقوم بعمل كبير من مستوى احلامه .

وبانتظار ذلك ، تقوم باريس بتنظيف بناياتها القديمة . ان لمسرح الاوديون، وقصر مازاران ، لون العسل واكاد اقول طعمه : وقد رؤي ان هذا اللون مائع بالنسبة لا « انفاليد » بعدما عني كثيرا بتنظيفها . لقد اجريت حتى الآن تجارب عديدة – لم ينجح شيء منها بعد – لايجاد لون رمادي يناسب وحده الواجهة الكبرى ويناسب لون السماء الباريسية . اما كنيسة نوتردام فلن تنظف : ان « زنجارها » يذكرنا بان عمرها ثمانية قرون ، سيحتفل هذا العام بمرورها .

لا شيء مهم في المسرح ، باستثناء المسرحية الثانية لرولان دوبيار واسمها « بيت العظام » . كانت مسرحيته الاولى « السنونوات الساذجة » محاولة من ضمن الخط الميتافيزيقي للمسرح المعاصر، غايتها اظهار مدى ما هي عليه من تفاهة ، علاقات التبادل بين الكائنات ؛ ومنذ خمسة عشر عاماً ، بعد يونسكو ، ونحن نصادف هذا الشعور بالتفاهة بين العلاقات . لكنه شعور اكثر تميزاً في « بيت العظام » : فالمقصود هنا هو البرهنة على ان ثمة حوارا موجودا في الانسان الفرد ، حوارا متواصلا وغير قابل للاكتناه ، بين الخارج والداخل بل يكاد يكون بين الجسد والروح . عيب المسرحية – اذا صح انه عيب – كونها ثابتة، وليست الا التكبير المتلاطم ، المعقد ، لحياتنا النباتية والمنكفئة داخل الوجدان . اما موضوعها فيعطينا اياه دوبيار في حديث صحفي ادلى به : « هناك بيت صاحبه ذو ثروة طائلة ، يقيم فيه وحده ، وهو طاعن في السن ، وقد اخذ يموت ، وهناك الاشخاص الذين تربطهم علاقة بهذا البيت : اشخاص الخارج ، واشخاص الداخل . ان موت العجوز يعني لكل منهم شيئا . وفي ما بينهم جميعا علاقات تمر كلها من موت العجوز » . ذلك هو الموضوع الذي ينبغي تحويله من لغة المسرح الى لغة الموسيقى : ان عددا لا يحصى من التنويعات تنبثق من الموضوع وتعود اليه ، بحيث ان المسرحية لا تبدأ ، في الحقيقة ، ولا تنتهي .

انصح ، لمن يرغب التخفف من هذا المسرح الثقافي الذهني ، بمسرحية « رقصة الفالس الكبيرة» لروبير داري . وداري هو صاحب مسرحيات استعراضية معروفة كثيرة ، وهي للمسرح ماكانته

افلام الاخوان ماركس للسينما. كل واحدة من مسرحياته مشهد كامل ، يستعير عناصره من المسرح و « الميم » والميوزيك هول . وكل واحدة من مسرحياته حلم منظم ، موجه نحو الضحك ، الضحك الذي يحض على مزيد من الاحلام . اما « رقصة الفالس الكبيرة » فهي حقيبة منتفخة ينبغي المثول بها ، في مطار اورلي ، لفحص الجمرك . والجمركي هو لويس ده فونيس . ومن هذه الحقيبة يخرج العديد من المشاهد الخرقاء ، بل تخرج قلعة كاملة ، ومعها ستة فرسان مدججين بالاسلحة . وهذه المسرحية مناسبة للاجانب الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية : فالممثلون لا يلفظون اكثر من خمس عشرة كلمة طيلة العرض ، لكنهم يتحركون كثيرا ويستعملون لغة اقوى تعبيراً من الالفاظ . ان لويس ده فونيس يظهر في هذه المسرحية راقصا ومقلدا وكوميديا ، واحدا من اغرب الشخصيات المسرحية .

حدث آخر بارز: عاد ايف مونتان الى باريس بعد تغيب اربع سنوات . عمره الآن ٤٢ سنة ، ومنذ ربع قرن وهو يغني ، لكنه لم يهرم . الم ينشد قائلا ان « الغناء والرقص ليسا للاشخاص السريعي العطب » ؟ عندما يكون على المسرح يندمج كليا في اغنيته . يقول : « انني احيا مائة بالمائة » . وقبل ان يعود الى غزو باريس زار الارياف حيث غنى . لا شك انه بارع وموهوب ، لكنه كذلك مؤمن بفنه . كل واحدة من اغنياته مسرحية صغيرة ، مسرحية حقيقية . وغالبا ما تلزمها سنوات لتنتهي .

بالمقابل ، لا شيء مهم في السينما : غير ان الجميع ينتظرون ظهور فيلم « جان دارك » لروبير بريسون ، الذي توقف عن العمل السينمائي بعد فيلم « النشال » ، ذلك الفيلم الغريب المدهش والبديع ، الذي لم يصادف اي نجاح . لقد استخرج بريسون حواره من دقائق محاكمة جان دارك ، واختار للعب دور جان دارك ممثلة مجهولة ، شأنه دائماً . والفيلم غاية في التواضع والاكتفاء ، ولعله اكثر في ذلك من فيلم دراير . لقد نجح بريسون في تحقيق هدفه ، وهو اعطاؤنا فكرة على عظمة جان دارك الخارقة ، وعن بساطتها ، وعن نبلها ، وعن قداستها . انها ، كما يقول بريسون ذاته ، «فتاة خلقت لتترك وراءها اثرا ، واثرها لا يمحى» . والعلامة الكبرى لعظمة جان دارك بالنسبة لبريسون ، هي في فشلها : وهنا نعثر على احد الموضوعات المألوفة في افلام بريسون .

الخريف هو فصل الجوائز الادبية . ذهبت جائزة غونكور الى رواية « حقائب الرمل » لآنا لانغفوس ، وجائزة رونودو لسيمون جاكو مار ، وجائزة فمينا لايف برجيه ، وجائزة ميديسيس لكوليت اودري . وهناك كتاب ناشئون نالوا جوائز اخرى ستعود عليهم بعدد كبير من القراء . روايتا « الجنوب » لايف برجيه و«الحارس الليلي» لسيمون جاكومار روايتان صعبتان ، يميزهما بعض الانحياز الاجمالي في الكتابة ، وكلتاهما من نوع «العجيب الداخلي » ، كتبهما مؤلفان يكتشفهما اسلوبهما لنفسيهما .

المكافآت الشرفية الكبرى لهذا العام هي جائزة الاداب الكبرى للاكاديمية الفرنسية وقد منحت للوك استان ، والجائزة الكبرى للرواية لميشال مور ، والجائزة الوطنية الكبرى للآداب نالها بيار جان جوف . وجوف عمره ٧٥ سنة ، وهو واحد من اكبر شعراء فرنسا الاحياء ـ احد الذين مارسوا التأثير الاكبر في التوجيه الحالي للشعر . انه بالاضافة الى استعماله التحليل النفسي في البحث عن رمزية تكون لغة حقيقية للعقل الباطن ، احد

اجل الناثرين في اللغة الفرنسية ، وتجري الان اعادة طبع مؤلفاته الروائية . واني انصح الذين لا يعرفونه بعد بقراءة مجموعته الشعرية « عرق الدم » وروايته « بولينا » ودراسته « دون جوان موزار » .

اذا قرأنا مجلات هذا الاسبوع ، رأينا ان الحدث الباريسي الكبير هو وصول عدد كبير من الكتاب السوفياتيين : وهم الروائيان بوستوفسكي ونيكراسوف مؤلف رواية « خنادق ستالينغراد » ، والشاعر اندريا فوزنسنسكي ، وقد جرى تنظيم بارع لزيارة الاخير ، كما جرى لصديقه وغريمه ايفتيشنكو في عواصم اخرى (وينتظر وصول ايفتيشنكو الى باريس بين يوم وآخر) . لقد استجوبت صحافة باريس الشاعر والتقطت له الصور . انه شاب لطيف ، يشبه ابطال « بؤساء » هوغو المشهورين بسماحهم وشجاعتهم ، كما يشبه مغنيا من مغني الميوزيك هول . لقد سئل كيف حال الشعر في الاتحاد السوفياتي ، فكان جوابه ان شعر الشباب امثاله في حال جيدة ، وانهم لم يعودوا مجبرين على عمل القصاصات التي كانوا يفرضونها في الماضي تحت ستار الشعر الاجتماعي . ومن شعر فوزنسنسكي يمكن القول ان مواضيع الحب ، والتفنن المزاجي ، والصياغة الكلامية في الشعر ، تلاقي نجاحا كبيرا ، لكننا ما نزال بعيدين عن الشعر الميتافيزيقي . لا ريب انه سيتغير شيء جذري عندما يتاح للشعراء في الاتحاد السوفياتي مجال التفكير . لكن لنضف رغم هذا ، ان ١٥٠٠ شخص (بينهم كثيرون من الروس المقيمين في باريس) كانوا يزدحمون قبل ايام لسماع فوزنسنسكي يتلو قصائده في مسرح فيوكولومبيه الذي لا يستوعب الا ٥٠٠ مقعد .

كلمة اخيرة : اذا كنت ممن يحلمون بباريس ذات ابتسامة الجوكوندا ، فان الجوكوندا لم تعد هنا ، وكأن متحف اللوفر بات ، بعدها ، قفرا يبابا . لقد اوشك رحيل اللوحة الشهيرة ان يجرف النقاد وهواة الفن في تظاهرة . اما انا شخصيا ، فلست بآسف على اللوحة ، خاصة واني اجد الابتسامة الغامضة نفسها على شفتي « باخوس » و « مار يوحنا » لليونار ، وهما معروضتان في المعرض الكبير في اللوفر .